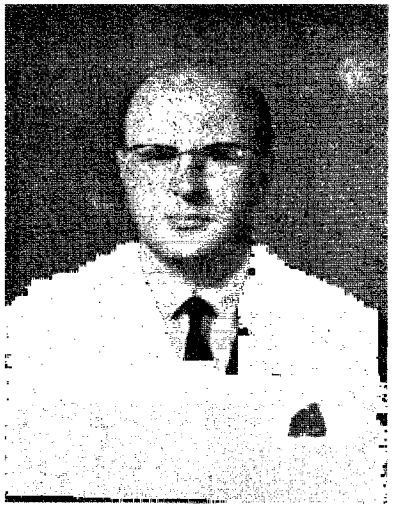

ما يسمونه (حجة تافهة) !...

سبب قلق من المثقفين الفرنسيين وبعض الصحف الفرنسيه حمله تهديد وتخويف واسعه ، بسبب ان المؤتمر العام للاونسكو في دورته الثامنه عشره التي عقدت في تشرين الثاني الماضي ، اتخذ قرارا بحق احد اعضائه ، وفقا لاحكام المرسوم التشريعي . ويبدو هذه الحملة اثر نشر ، خصوصا بعد التوضيح الذي قام به المدير العام للاونسكو ونشرته جريده « لوموند » بتاريخ ٧٤/١٢/٧ ، غير موقفه في اختيار الحجج والوسائل . فقد زعم موقعو البيانات القائمة غالبا على التسانم والمقالات المغرضه دائما ان اسرائيل ، الدولة العضو ، قد « طردت » من المنظمه بـ « حجه تافهه » هي حجه التنفيبات الاثرية ، وانها تعرضت لضرر من اخطر الاضرار في الا يكون لها حضورها في منطقة من مناطق العالم تعتبر اطارا لنشاطات المنظمه الموصوفة بانها نشاطات « اقليمية » .

والغاية من كلمتنا التوضيحية الجديدة هذه هي الاسهام في اثبات حقيقة الوقائع ـ في نقطة الانطلاق ونقطة الوصول ـ والمساعدة على اعلام الجمهور ، وتفكيك آله الحرب التي ينصبها في وجه الاونسكو اولئك الذين اصبح تشويه الحقيقة ، خدمة لاية قضية اسرائيلية مهما كانت ، طبيعة ثانية لديهم ، واصبح تسميم الاخرين بالحقائق المعكوسة ضربا جديدا من التعبير عندهم .

* * *

بصدد مدينه القدس ، يجب ان نرى ان المسألة واضحة كالنهار، خلافا لكل تمحك او جدل فارغ .

فما الذي حدث حقا ؟

في عام ١٩٤٨ ، اسبولت اسرائيل على نصف المدينة ، محتقرة قرارات الجمعية العامه للامم المتحدة ، واعلنت سلطات هذا البلد ـ الذي لا بد من التذكير بان قرار الامم المتحدة هو وحده الذي انشأه ـ رغبة في اتخاذ هذه المدينة « عاصمته » ، ضد قرار الامم المتحدة، وهي « عاصمة » لم توافق اية دولة في العالم على الاعتراف بها . ومنذ ذلك التاريخ وتوصيات الجمعية العمومية وقرارات مجلس الامن المتعلقة بالموضوع تذكر اسرائيل ـ التي لم تكن، لتبالي ـ بخرقها الفادح للحق الدولي الذي يحدده الميثاق .

وفي عام ١٩٦٧ ، قامت اسرائيل بعدوان جديد على جيرانها العرب ، وحققت ضما جديداً للاراضي بالقوة ، ومن هذه الاراضي القسم العربي من القدس ، المدينة المقدسة التي لم يطلق عليها العرب ، بدافع من تبجيلها ، اي اسم ، مكتفين بتسميتها «القدس» . والواقع أن في هذا الجزء من المدينة اقدس الامكنة التي تكرسها الاديان التي يعتنقها اكثر من مليار مؤمن .

ومن جديد ادانت الامم المتحدة ، بجمعيتها العمومية ومجلس امنها، اسرائيل ، مطالبة اياها ، وبالحاح ، الا تغير شيئا من وضع الاماكن المقدسة ولا من مظاهرها .

اما الاونسكو ، فقد طلبت في اطار مهمتها الحضارية ، ووفقا للمبادىء التي نص عليها الاتفاق الدولي حول حماية التراث الثقافي في حالات النزاع المسلح ، وهو اتفاق لاهاي لعام ١٩٥٤ ، طلبت الاونسكو من السلطات الاسرائيلية التي وقعت على هذه الوثيقةالحقوقية الهامة ، ان تطبق احكامها . وهذه الاحكام التي اكملتها فيما بعد توصية نيودلهي ، تحظر على كل دولة موقعة استولت بالقوة على ملك ثقافي يخص دولة اخرى تدمير هذا الارث الثقافي او استلحاقه او تغيير معالمه . ومنذ عام ١٩٦٧ ، ارسل المجلس التنفيذي للاونسكو الى سلطات الاحتلال توصية بهذا المعنى . وفي عام ١٩٦٨ ، ايد المؤتمر العام ، بتوصية اخرى ، موقف المجلس التنفيذي في هذا الصدد . وما فتيء هذان الفرعان للاونسكو، منذ سبع سنوات ، يدعوان اسرائيل بشكل منظم الى التقيد بالقانون الدولي . ولكن اسرائيل ، كما تفعل منذ خمسة وعشرين عاما تجاه قرارات الامم المتحدة ، ما تزال منذ سبع سنوات تحتقر قرارات الاونسكو التي استنفدت كل المعجم الدبلوماسي المستعمل ، من « الاسف » الى « الاستنكار » ، الى « الادانة » ، محاولة عبثا رد السلطات الاسرائيلية الى مفهوم للاشياء سليم وطبيعي، في اطار القانون الدولي الذي لا يبقى خارجه الا قانون العنف . اما اسرائيل ، فقد اختارت في القدس طريق العنف .

والعنف ، في حالة القدس ، المدينة المقدسة ، والمدينة التاريخية، ومدينة الفن ، هو مهاجمة هذه المظاهر الاساسية الثلاثة للمدينة ، مع احتمال تعريضها للخطر .

فما الذي قامت به سلطات الاحتلال الاسرائيليه ؟ لقد هدمت بالجرافات احياء كاملة كالحي المغربي الذي يعود تاريخه الى القرن الثالث عشر : ستمئة مبنى ومنشأة دينية ومساجد للمماليك والايوبيين اختفت من الخارطة . واجريت حفريات تحت مسجدي الاقصى والصخرة . ولن ننسى بهذا الصدد الحريق الذي نسب آنذاك الى شخص غير مسؤول كاد يدمر منذ بضع سنوات تلك الجوهرة الاثرية الرائعة التي هي المسجد الاقصى . وحملة الحفريات هذه هي ، في نظر جميع المراقبين الحياديين ، بعيدة عن ان تكون ، كما يزعم البعض، « حجة باطلة او تافهة » لكي تؤدي الى ادانة اسرائيل : ذلك ان هذه الحملة ترمي ، عبر موكب الهدم والتدمير والتخريب ، الى محو اكبر عدد ممكن من الاماكن والعلامات والرموز التي تدل دلالة لا ترد على الطابع اللايهودي القديم للمدينة ، من اجل تهويدها وصهينتها التدريجية . هذا ما كان ينبغي ان يأخذه بعين الاعتبار المدافعون عن اسرائيل بلا قيد ولا شرط . فما كان عسى هؤلاء المدافعين ان يفكروا لو ان المحتلين ، خلال فترة « الاحتلال » ، كانوا قد قاموا بحفريات تحت

كنيسة « نوتردام » ، مثلا ، محاولين اكتشاف ما يبرر بأي ثمن ـ بناء على آثار آرية ويزيفوتية ، مثلا ـ حقا ما على العاصمة الفرنسية ؟ وما عسى هؤلاء المدافعين انفسهم ان يفكروا ، على الصعيد الجمالي ، وهذا مثل آخر ، بشأن حماية اماكن مدينتي البندقية وفلورنسة الرائعة ومبانيهما لو ان مقاولين ، مدفوعين بأية دوافع ، حصدوا بعض الاحياء القديمة في هاتين المدينتين ليقيموا على الاماكن « المحررة » ابنية مشتركة وناطحات سحاب ؟ والحال ان هذا تماما ما يفعله الاسرائيليون على تصفيق اصدقائهم وتهليلهم المتسرع ... ليس علينا الا ان ننظر الى تلك الصور التي نشرت اخيرا لنتثبت من الجريمة ، الروحية والفنية، التي ترتكب في القدس . ليس علينا الا ان نرى هذه الصور لنتأكد من ان المجموعة الدولية كانت على حق في مطالبتها اسرائيل بوقف هذه الجريمة ...

ان الذي يرى تلك الصور التي هي افصح وابلغ من اية حجة ، يدرك لماذا قررت اعلى هيئة في الاونسكو ، اي المؤتمر العام الذي يتكون من ممثلي الدول الاعضاء المسؤولة ، انه قد اصبح من الضروري، اذا اريد انقاذ المدينة ، القيام بخطوة اخرى في استنكار عمل اسرائيل. وليس يمكن لهذه الخطوة بعد ان تكون مجرد موقف مبدئي ، باعتبار ان مختلف المواقف المبدئية التي كانت تزداد شجبا واستنكارا ، كانت قد وجدت اسرائيل لا مبالية تماما بالانفعال الدولي . لنذكر هنا انه منذ بضع سنوات ، بعد ان ادان المؤتمر العام والمجلس التنفيذي للاونسكو اعمال اسرائيل مرة اخرى ، كان السيد تيدي كولك رئيس بلدية مدينة مزعوم انها قد « وحدت » ، بجمع مؤتمرا للاختصاصيين من المهندسين والمهندسين المدنيين مختلفي الجنسيات ، وان كانوا جميعا من اليهود ، ليعرض لهم مشروعاته بشأن تنظيم وضع المدينة في المستقبل . فهل نعرف حقا ان هذا المؤتمر ، المفروض انه متعاطف ومنحاز ، قد رفض رفضا باتا الخطط المطروحة بمقدار ما كانت تفضي الى تشويه الامكنة تشويها كاملا ؟ وبالامس فقط ، في اليوم التالي لتصويت المؤتمر العام على القرار المتعلق بالقدس ، اليس ان مجلس الوزراء الاسرائيلي يقرر انشاء « منطقة صناعية » في القطاع الغربي، اي في « الاماكن المقدسة » بالذات ؟

ان شجب المجتمع الدولي لاسرائيل لا يمكن القول انه اخذ الدولة العبرية على حين غرة . فقد كان هذا الشجب آتيا منذ سنوات بعيدة كمرحلة لا مفر منها في موجة الرفض التدريجية . ولقد انذر اسرائيل افضل اصدقائها بذلك عشية انعقاد المؤتمر العام وفي اثنائه . بل لقد طلبت احدى حليفات اسرائيل ، بشكل سري ، ان تعلن اسرائيل خلال المؤتمر العام ، وبلا مواربة ، ان جميع الحفريات ستوقف في القدس تلبية لارادة الدول في مجموعها . ولو اتخذ هذا الموقف المنطقي المأمول لعطل الانفجار ولاعطى المدينة فرصة لان تنقذ . ولكن اسرائيل قالت : لا.

* * *

ما كان عسى المجتمع الدولي ان يفعل ازاء هذا الموقف السلبي من الرفض والتحدي ؟ ما عساه يفعل ، هذا المجتمع ، بعد خمسة وعشرين عاما من المفاوضات اللامجدية في الامم المتحدة ، وبعد سبعة اعوام من المناقشات اللامفيدة في الاونسكو ؟ اينبغي له الاستسلام وتكريس « الامر الواقع » ؟ اينبغي اقرار استشهاد المدينة المقدسة الجسدي ، بعد استشهادها الروحي ؟ في وجه « لا » اسرائيل الحاسمة ، قال المجتمع الدولي بدوره : لا . وقد قال لاءه هذه بلا خوف ولا تردد ولا ندم حين اكد التصويت الاولي على القرار الذي يدين اسرائيل « لموقفها المستمر في تغيير الطابع التاريخي لمدينة القدس » : وقد تبع هذا التصويت الاول داخل اللجنة الثقافية المتخصصة تصويت اخر ، بعد ثلاثة اسابيع ، داخل المؤتمر العام للاونسكو الذي اتخذ قراره باغلبية اكبر بالرغم من الحملة الصحفية العنيفة التي شنها جميع اصدقاء اسرائيل .

علام ينص ذلك القرار ؟ انه « يلزم المدير العام بالامتناع عن منح اسرائيل مساعدة في ميادين التربية والعلم والثقافة ، الى ان تحترم بدقة القرارات المذكورة » أي « القرارات السابقة التي اتخذها المؤتمر العام منذ دورته الخامسة عشرة الخاصة بانتهاك قراراته وانتهاك الاهداف المذكورة في المرسوم التشريعي » .

اين هي الفضيحة في ذلك ؟ ولماذا هذا الارتماء الاعمى في الجهل الكامل لمعطيات المسألة الحقيقية ؟ واي مراقب متجرد يستطيع ان ينكر على المجتمع الدولي الحق في مجازاة عضو من اعضائه يرفض رفضا تاما القواعد التي وضعها هذا المجتمع لصالح الجميع وصالح كل عضو من اعضائه من اجل حياة دولية ممكنة ؟

لقد اخذ بعض الصحف المتسرعة او الموجهه على الاونسكو ان تتخذ ازاء اسرائيل ما يجب اعتباره عقابا ضعيفا جدا في هذه المرحلة . فان تاريخ المنظمات الدولية غني بعقوبات اقسى واشد تجاه الدول الاعضاء التي خرقت انظمتها ، فلم تثر تلك العقوبات اعتراضات رئيسية ، باستثناء اعتراض الجهات المعنية ، ولم تشن حملات كراهية وحقد على تلك المنظمات المسؤولة عن هذه العقوبات . ان هناك اتفاقا دوليا مستندا الى رأي محكمة العدل الدولية في نيسان ١٩٤٩ يسمح لكل منظمة مختصة ان تتخذ كل عقوبة تراها ضرورية ، حتى بدون نص صريح في دستورها . وهكذا :

١) قررت الجمعية العمومية لمنظمة التغذية والزراعة عام ١٩٦٣ طرد جنوب افريقيا من الاجتماعات الاقليمية للمنظمة .

٢) وقررت الجمعية العمومية للمنظمة العالمية للصحة عام ١٩٦٤ ايقاف الامتيازات المتعلقة بحق التصويت بجنوب افريقيا .

٣) وتبنى مؤتمر البريد العالمي الذي عقد في فيينا عام ١٩٦٤ قرارا بطرد وفد جنوب افريقيا . واتخذ القرار نفسه في مؤتمر طوكيو ١٩٦٩ .

٤) واتخذ مؤتمر المواصلات السلكية عام ١٩٦٥ قرارا بطرد جنوب افريقيا من المؤتمرات الاقليمية لافريقيا التي تدعو اليها منظمة المواصلات السلكية .

ووفقا لهذا العرف الدولي ، فرضت الاونسكو بعض العقوبات على البرتغال وجنوب افريقيا وروديسيا بسبب سياستها في السيطرة الاستعمارية والتمييز العنصري . وقد تبنى المؤتمر العام للاونسكو بعض هذه العقوبات في خط قرارات الجمعية العمومية للامم المتحدة ، واتخذ المبادرة لتبني عقوبات اخرى ضد البرتغال بسبب سياسته الاستعمارية وسياسة التمييز العنصري وسياسة القتل والابادة العنصرية .

واذن ، فان هذا القرار « الاجرائي » الذي اتخذه المؤتمر العام للاونيسكو ازاء الدولة اليهودية انما يندرج في هذه الطائفة من القرارات السابقة التي اتخذتها الامم المتحدة . غير ان هذا القرار الذي شوهه اصدقاء اسرائيل تشويها متعمدا يظل الى حد بعيد نظريا ، باعتبار ان اسرائيل لا تستعين الا استعانة متواضعة بمساعدة الاونيسكو الموجهة خصوصا ، كما هو معروف ، نحو البلدان التي هي في طريق النمو . ثم انه يتعين على اسرائيل، وعليها وحدها ،ان تتصرف بحيث ترفع عنها هذه العقوبة التي استحقتها عن جدارة : فكفيها من اجل ذلك ان تشرف ـ في هذه النقطة المحددة على الاقل ـ توقيعها على عدد من الاجهزة القانونية التي انتمت اليها بحرية والتي تفرض عليها الواجبات التي تفرضها على كل دولة اخرى موقعة . ان الدولة الجديرة بالاحترام هي اولا الدولة التي تحترم نفسها عبر الالتزامات التي اتخذتها .

واخيرا ، فان المؤتمر العام ، بعد القرار المتخذ والذي يؤكد جميع القرارات السابقة المتعلقة بالقدس ، يدعو صراحة « المدير العام لمواصلة جهوده من اجل تأمين الحضور الحقيقي للاونسكو في مدينة القدس .» فاذا كانت الدولة العبرية تصر على مواصلة سياسة الباب المغلق ، افلا توشك على الصعيد الدولي ان تجد نفسها في وضع اشد صعوبة على الجانب الاخر من باب احكمت اغلاقه ؟

صلاح ستيتية